الفصل الثاني

فلسفة الدعاية الأمريكية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثانى

فلسفة الدعاية الأمريكية

تقوم الدعاية الأمريكية على أسس برجماتية بحتة تمتد أصولها إلى أساليب الإعلان التجارى وانتهازيته وهذا وضع طبيعى بالنسبة لنظام رأسمالى احتكارى فقد قدرته على بيع الرأسمالية إلى شعوب العالم كأيديولوجية بينما الأفكار الاشتراكية تجذب أغلب هذه الشعوب بصورة أو أخرى سواء كان منبعها الماركسية اللينينية أو الاشتراكية المثالية الخ . . . ورغم أن الأساس البرجماتى للدعاية الأمريكية يعطيها مزيداً من حرية الحركة حسب ظروف ومقتضيات الحال إلا أنه فى الوقت نفسه يمثل ناحية الضعف الأساسية فيها بما يفرضه من التناقض وعدم الاستمرار والثبات واللجوء إلى الإرهاب والفتن والخديعة والكذب والإثارة وسائر حيل الحرب النفسية للالتفاف حول الأيديولوجية المعادية والنحر فيها بدلا من مواجهتها بأيديولوجية منافسة قوية فى منطقها وحججها .

ويكاد يتفق رأى كبار المفكرين فى العالم الرأسمالى اليوم على أن الرأسمالية كنظام لم تعد فى موقع يسمح لها بأن تقدم أفكاراً تغرى الجماهير بمتابعتها . فالجماهير حتى فى البلاد الرأسمالية قد أخذت تنبذ النظرة الاستغلالية للعالم الخارجى وهذه هى أزمة الأيديولوجية الرأسمالية الحقيقية . وهذا وضع طبيعى بالنسبة لنظام لا يقدم للعالم اليوم سوى الحرب أو البطالة والتضخم والغلاء فى وقت تسرى فيه الأفكار الاشتراكية سريان النار فى الهشيم .

ومع ذلك فالناس على دين ملوكهم والأفكار السائدة فى المجتمع الرأسمالى ما زالت بالضرورة أفكار الطبقة الحاكمة وإن أخذ تأثيرها على الجماهير يتنابه الضعف .

ولكى تحافظ الرأسمالية على تفوقها الروحى لم تجد أمامها سوى المزيد من

الدعاية القائمة على أسس الحرب النفسية[١] . والحقيقة أن أزمة الأيديولوجية الرأسمالية إنما ترجع إلى تغير موقفها التاريخى من حركة تقود التقدم فى القرنين الماضيين إلى حركة رجعية تعمل على إيقاف تطور المجتمع فى قرننا الحالى بعد وصول الرأسمالية إلى أعلى مراحل الاستغلال الاحتكارى ونبذها للديمقراطية اللبرالية التى كانت دعامتها الأولى فى القضاء على النظم الإقطاعية المستبدة فى بداية الثورة الصناعية . ومن الطبيعى تحت هذه الظروف أن تتناقض مصالح وأمانى أغلبية السكان مع القيم السائدة فى المجتمع الرأسمالى المعاصر القائم على الاستغلال والتوسع الاستعمارى[٢] .

فالأفكار وهى نتاج النشاط الواعى للجماهير ، مقيدة آخر الأمر بعالم الحقائق مهما اتسع نطاق التضليل الأيديولوجى .

وهذا هو مصدر التناقض الحاد الذى يحدد موقف الرأسمالية المعاصرة فى حرب الأفكار : فهى من جهة لم تتعرض من قبل لمثل هذا الموقف الملح الذى تشتد فيه الحاجة إلى وسائل مأمونة للتحكم الروحى فى الجماهير لمواجهة انتشار الأفكار الاشتراكية ومن جهة أخرى تتسم هذه الأيديولوجية بطابع الانهيار إذ تبرهن يوماً بعد يوم على أنها لم تعد ملائمة أكثر فأكثر للسيطرة على قلوب الناس وعقولهم .

وتفصح الأيديولوجية الرأسمالية عن أزمتها بطرق شتى تبرز فيها سيادة روح التشاؤم من المستقبل الأمر الذى يعكس حالة نظام اجتماعى لم يعد له مستقبل وأصبحت توقعات قادته تنحصر فى الدمار . ولعل هذا أن ينعكس بجلاء فى فلسفة التاريخ البرجوازية التى تخلت عن نظرية التقدم التى كانت تنادى بها الرأسمالية اللبرالية فى شبابها وأخذت تروج لمبدأ الجمود الاجتماعى والدورات التاريخية التى بموجبها يتحتم على كل مدنية أن تنهار وتعود لنقطة البداية فى تطورها .

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع الفصل الخاص بالحرب النفسية من كتابنا « الرأى العام والحرب النفسية » الجزء الأول .

(٢) — *Laski, Harold* : "Liberty In The Modern State". Pelican, 1937 - P. 19.

ويشرح الأستاذ " هـ . ا . كار " المؤرخ البريطانى الكبير أسباب التشاؤم فى فلسفة التاريخ الغربى قائلا : « فى القرن التاسع عشر كان المؤرخون البريطانيون على بكرة أبيهم ينظرون إلى مجرى التاريخ كظاهرة تقدمية ذلك لأنهم كانوا يعبرون عن أيديولوجية مجتمع فى حالة تقدم سريع ملحوظ ، كان التاريخ مليئاً بالمعانى بالنسبة للمؤرخين البريطانيين طالما بدا أنه يسير فى الطريق الذى يريدونه ، أما الآن وقد أخذ التاريخ اتجاهاً مخالفا فإن الاعتقاد فى معنى التاريخ أصبح ضرباً من اللغو » . ويضيف كار متهكماً : « يقال أن نيكولا الأول قيصر روسيا قد أصدر أمراً يحرم فيه استخدام كلمة التقدم، واليوم يكرر الفلاسفة الغربيون الشيء نفسه[1] » .

ويظهر هذا التشاؤم وفقدان الإيمان فى التقدم فى الأدب الأوتوبى الغربى بصورة أكثر استرعاء للنظر ، فمعظم هذا الأدب يصور عادة مأساة رهيبة تبيد الجنس البشرى أو صورة لمجتمع منحل تحكمه الآلة ويقضى على كل القيم الإنسانية وينتج نظاماً سياسيا متعطشاً للدماء تتضاءل بجانبه فظائع النازية .

وهذا اللون من الأدب فضلا عن أنه يعكس فقدان الإيمان بالمستقبل والتقدم يعتبر فى الوقت نفسه بمثابة نوع من النقد الاجتماعى لأساليب الحياة الذى يتجرد الناس فيه من إنسانيتهم ويلحقوا بالآلات .

ولا شك أن هذه الصورة التشاؤمية مستوحاة من حقائق المجتمع الرأسمالى المنحل الذى لم يعد يملك شيئاً يقدمه للناس ، فالمستقبل الذى يصوره لهم غير مبشر بالأمل إطلاقاً .

ونتيجة لذلك أصبح الترويج اللامعقول فى مجال الفلسفة ، ومحاولة صبغه بالصبغة العلمية الممارسة المألوفة الآن بجانب الترويج لمذاهب غيبية صريحة .

ولقد فسر " هنرى ماجد " الأستاذ بجامعة نيويورك ظاهرة الهجوم على العقل والمعرفة العلمية من وجهة النظر السياسية فقال :

---

(١) Carr, E.H. : "What Is History" , London 1962 - P. 106.

« إن هدف الفلسفة هو السعى وراء الحقيقة . أما هدف المجتمع فهو المحافظة على ذاته ؛ ومن هنا تنشأ الحاجة إلى وضع حد فاصل لاقتفاء الحقيقة . فالمجتمع قد يشعر – ربما عن حق – أنه من الضرورى فى سبيل المحافظة على ذاته أو عدالته أو رفاهيته وضع حدود على اقتفاء المعرفة ، لأن اقتفاء المعرفة كأسمى هدف من وجهة نظر الإنسان ؛ غالباً ما يتضمن بذور الخروج على النظرة السياسية السائدة » .

وعلى أساس هذا الاقتناع يقترح " ماجد " الأهداف الثلاثة التالية للفلسفة السياسية :

أولا – **التعليم لبث الولاء** : بأن يؤخذ الشباب باليد قبل أن يصلوا إلى مرحلة النضوج العقلى وتنمية النظرة النقدية ، ويلقنوا ماهية الإخلاص ، ولن يكون هذا الإخلاص .

ثانياً – **التعليم للنخبة أو القادة** : بمعنى أن يقتصر التعليم على النخبة المختارة الذين سيتسلمون مقاليد الحكم .

ثالثاً – **التعليم للتفاهم** : أى لمساعدة النخبة المختارة (الحكام) على اتقان علوم الحكم وفنونه[1]

ولا حاجة لنا لتبيان مدى الصلة الوثيقة بين تعاليم " ماجد " هذه وتعاليم ميكيافيللى . وبالإضافة إلى ما تقدم فإننا يمكن بسهولة أن نلمس تحولا أساسيا فى فهم الأيديولوجية الرأسمالية للطبيعة البشرية . فقد راجت الأفكار التى تصور الطبيعة البشرية كمحط للغرائز الدنيئة والميول الحيوانية . والحقيقة أن السر وراء ترويج هذا الاتجاه الفكرى إنما يعود إلى سعى فلاسفة الرأسمالية إلى تبرئة النظام من سيئاته وإلقاء تبعتها على الطبيعة البشرية نفسها وبالتالى إلى تبرير تحول الرأسمالية إلى جهاز للقمع . فإذا كانت الغرائز المدمرة هى التى تتحكم فى الجماهير فإن هذا يبرر وظيفة السلطة السياسية فى كبح جماح الإنسان وإدارة الجماهير .

---

(١) *The American Journal Of Philosophy, Vol. L.* 11. January 1955 - P. 37-41.

ولا داعى — عندئذ — لأن نقنع أنفسنا على حد قول " جابرييل مارسيل " الوجودى الفرنسى — بأن من الممكن تعليم الجماهير « فهذا تناقض داخلى » . « فالفرد فقط وعلى سبيل الدقة الشخصية المميزة هى القابلة للتعليم ، وخارج هذا النطاق فالفرصة سانحة للتدريب فقط[١] " .

والواقع أن أزمة بل فقر الأيديولوجية الرأسمالية المعاصرة فى مجال الفكر الاجتماعى ، غالبًا ما تختفى وراء قناع الأساليب العلمية والمبالغة فى استخدام الأساس التطبيقى للعلوم الاجتماعية كستار لابتعاد علم الاجتماع عن معالجة المشكلات الأساسية للحياة الاجتماعية والتحول إلى دراسة مشكلات لا صلة لها بالموضوعات الأساسية المتصلة بضرورة إعادة التنظيم الاجتماعى .

ولهذا دلالة كبرى ، فأمام النقد الاجتماعى المتزايد ونتيجة لتخلى الفكر الرأسمالى عن مبادئه الثورية الليبرالية الأولى (مبادئ العقد الاجتماعى — سيادة الشعب — حقوق الإنسان) تحول علم الاجتماع الآن إلى تبرير السياسات الرجعية ونظريات التفرقة الجنسية . . . إلخ . وأخذ يستخدم البحث التطبيقى كوسيلة لمساعدة الدولة الرأسمالية فى حكم المجتمع .

وفى هذا يقول س . ريت ميلز عالم الاجتماع الأمريكى الشهير : « لقد فقد علم الاجتماع واقعه الإصلاحى وأصبحت اتجاهاته لمعالجة المشكلات المتناثرة والمسببات الثانوية بمثابة تحول لخدمة مصالح الاحتكارات ، والعسكرية والدولة[٢] » .

والحقيقة أن الأزمة الأيديولوجية لا تتضح فقط فى الفلسفة والفكر السياسى والاجتماعى ، وإنما أيضاً فى المجال الثقافى فالإحباط والاهتمام المرضى بالغرائز الحيوانية وأساليب السلوك المنحرفة والقسوة والانحلال أصبحت الموضوعات المفضلة للأدب والفن ، وقد تحدثنا عن ذلك تفصيلا فى الجزء الأول من كتابنا « الرأى

---

(١) *Marcel, Gabriel:* Les Hommes Contre L'Humain" Paris 1951 - P. 13.

(٢) *Mills, C. Wright :* "The Sociological Imagination" New York, 1959 - P. 92.

العام والحرب النفسية » . وهذه الظواهر القبيحة لا تمثل مع ذلك الجو السائد . فلا زالت قطاعات واسعة من الناس تهتم بالثقافة الجادة والفن الحقيقى . ولكن جنباً إلى جنب مع هذا يبذل تجار الثقافة جهوداً كبيرة لإنتاج بدائل رخيصة للثقافة الجادة لجذب الملايين من الناس . فالثقافة اليوم تعكس بصورة متزايدة مرض الرأسمالية المميت وفزعها من المستقبل والحقيقة والتفكير السليم . فزعها من الإنسان نفسه .

ولعل أخطر ما يواجه الأيديولوجية الرأسمالية أزمة الثقة العميقة التى يبديها الجنس البشرى حيال الرأسمالية وكل مؤسساتها الاجتماعية والسياسية : وأوضح دليل على ذلك تخلى جانب كبير من الشعوب عن الرأسمالية كنظام حكم . (الدول الاشتراكية ومعظم الدول الحديثة الاستقلال) بعد أن فقدت جاذبيتها كنموذج اجتماعى مقبول .

وتنعكس هذه الأزمة بصورة متزايدة فى السنوات الأخيرة داخل قلاع الرأسمالية نفسها ، ولعل من أهم مظاهر ذلك تزايد نشاط الزنوج والشباب وثورتهم التى هزت جميع أنحاء العالم الرأسمالى ، حتى لقد أصبح على الرأسمالية — حتى فى أعتى الدول الرأسمالية — أن تخفى وجهها الحقيقى وأن تظهر نفسها بمظهر ليس لها سواء على المستوى الفردى أو على مستوى النظام الاجتماعى ككل .

وفى هذا المعنى يقول السناتور روبرت كنيدى :

« إن الرأسمالية قد أصبحت الكلمة القذرة فى الشرق رغم كل الدعاية الأمريكية والمساعدات الاقتصادية [١] » .

ويقلق هذا الوضع المفكرين الغربيين إلى أقصى حد ، فبينما تفقد الرأسمالية ثقة الجماهير تتزايد جاذبية الاشتراكية وخاصة فى البلدان النامية ، وفى هذا كتب " ستراوس هوبيه " يقول متأسياً :

« لقد أصبحت القاعدة فى البلدان النامية قبول نوع من الاشتراكية

---

(١) *Kennedy, Robert :* "Just Friends And Brave Enemies". New York 962 - P. 118.

والتخطيط الحكومى فى الوقت الذى لا تلقى فيه فكرة المجتمع الاقتصادى الحر التى ترتبط بالولايات المتحدة تأييداً كبيراً فى آسيا وأفريقيا ومعظم بلدان أمريكا اللاتينية [١] » .

حقا لقد مضى الوقت الذى كان دعاة الرأسمالية يروجون فيه لمبدأ قدسية الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج التى هى أساس المجتمع الرأسمالى . فاليوم يتجه عدد متزايد من الدول — حتى الدول الرأسمالية نفسها — إلى الاعتراف الفعلى — إن لم يكن القانونى — بكثير من الاجراءات الاشتراكية فى صورة التأميم وغيره . وبذلك تقبل — ولو نظريا — فكرة أن تركيز الثروة فى أيدى القلة تهدد بالخطر مصالح المجتمع وهى فى بعض الحالات تؤكد ذلك القبول بالتشريع المعادى للاحتكارات .

وكذلك أصبحت المجاهرة الصريحة بالدفاع عن الاستعمار جزءاً من مخلفات الماضى لأن الشعوب لم تعد تتقبله .

وينطبق هذا القول نفسه على فكرة مسئولية الرجل الأبيض أو الرسالة الحضارية للاستعمار . والحقيقة أن تجربة فيتنام والجزائر والكونغو والعدوان الإسرائيلى الإمبريالى على الدول العربية قد أثبتت للعالم أن مثل هذا الحديث ليس إلا ستاراً للحروب الاستعمارية التى تفيد الرأسماليين وتدفع الشعوب ثمنها من أرواحها ورفاهيتها وحرياتها .

وهكذا أصبح من المستحيل — فى عصرنا هذا — الدفاع عن الحرب ، تلك المؤسسة الرأسمالية الأصيلة .

فإذا كانت الرأسمالية فى الماضى قد استطاعت أن تخفى حقائق الحرب عن الجماهير الشعبية تحت شعارات المصالح القومية والحرية : . . إلخ . فإن هذا اللعب بالشعارات لم يعد يجدى مع الجماهير اليوم . فبالرغم من استمرار تمجيد بعض العسكريين للحرب فالملاحظ أنه لا توجد دولة واحدة تستطيع أن

---

(١) *Strauss-Hupé & others :* "The Zone Of Indifference" New York, P. 267.

تجهر رسميا بدعوة الحرب ، بل إن أكثر الدوائر الحاكمة عدوانية تجد نفسها مضطرة إلى الإدعاء بأنها لا تبغى إلا السلام . وهى مجبرة على ذلك لأن تقدير النظام الاجتماعى من وجهة نظر الجماهير فى عصرنا هذا أصبح يرتبط بموقفه من قضية الحرب والسلام .

كل هذه أدلة على أن النظام الرأسمالى قد أنهك نفسه ولم يعد يقابل احتياجات التطور الاجتماعى لعدم قبوله للتغيير . ولإصراره على مبادئه الاستغلالية الأساسية . ومن هنا أصبح على هذا النظام أن يلائم نفسه لمقابلة حقائق التاريخ الجديدة فى شتى الميادين بعد هزائمه المتكررة أمام الاشتراكية وقوى التحرر الوطنى . وهذا التلاؤم كثيراً ما يعبر عنه فى شكل تنازلات تمشياً مع روح العصر ومقتضياته . تنازلات لم يكن من الممكن منذ عقدين أو ثلاثة أن تحدث . وهى تنازلات تمتد لتشمل مجالات اقتصادية واجتماعية وسياسية .

ومع ذلك فهذه التنازلات لا تعنى أن الرأسمالية قد غيرت جلدها أو أنها تتحول إلى الاشتراكية فما زالت الرأسمالية نظاماً اجتماعيا إستغلاليا ، يسبب للكتل الجماهيرية آلاماً لا حصر لها .

ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن التغيير الحادث هو مجرد مجاراة لمقتضيات الأزمة العامة للرأسمالية .

ولقد انعكس هذا كله على وظائف الأيديولوجية الرأسمالية التى تمر الآن بمرحلة تغيير أساسية فى تكتيكاتها . فبدلا من تبرئة الرأسمالية ومحاولة تبرير مؤسساتها ، أصبحت مهمتها الأساسية اليوم تصوير الرأسمالية وكأنها غير رأسمالية . فهذا هو الهدف الأول للدعاية الأيديولوجية اليوم عن طريق تمويه المضمون الحقيقى للنظام الاستغلالى القائم . ويكشف هذا عن مدى ضعفها ، ذلك أنها تواجه مشكلة لا حل لها ، مشكلة الدفاع عن المثل العليا والمؤسسات الرأسمالية ورفضها فى الوقت ذاته ، وهو ما يجبرها على التصادم مع الواقع نفسه ولا بد للواقع أن يفوز مع الوقت ، بينما تتحلل الأيديولوجية التى تفقد صلاتها

بالواقع وتفقد تأثيرها على الكتل الجماهيرية . وهو ما يحدث حاليا باعتراف الفلاسفة والمفكرين الغربيين أنفسهم.

فهذا " دانيل بيل " يقول فى كتابه « نهاية الأيديولوجية » :

« إن الأيديولوجية التى كانت ذات مرة طريقاً للعمل قد وصلت إلى نهايتها المحتومة [١] » .

ويقول " رونالد ستيل " : إننا آخر الأيديولوجيين . إننا نعيش عصر موت الأيديولوجية وشعاراتها التى عفى عليها الزمن [٢] » .

والواقع أن المشكلات الأيديولوجية التى تواجه الرأسمالية فى طورها الاحتكارى الإمبريالى الحالى تتطور بطريقة معقدة وغير قابلة للحل حتى إن القول كثيراً ما يتردد اليوم فى البلدان الرأسمالية بأن الحياة الاجتماعية ينبغى أن تجرد من الأيديولوجية بصفة عامة ، مما يدل على مدى الإفلاس الفكرى وعدم القدرة على خلق أيديولوجية تواجه الأيديولوجية الاشتراكية على اختلاف مدارسها .

ومن هنا كان جهدهم لتجنب التحام مباشر بين الأيديولوجيتين . ومن هنا أيضاً يظهر الكلام عن الطابع الخاص للأيديولوجية الغربية الحديثة . باعتبارها أيديولوجية ديمقراطية تحتمل اختلاف الآراء ووجهات النظر وبالتالى ليست مطالبة بإعطاء تفسيرها الشامل للعالم فى مواجهة الأيديولوجية الاشتراكية ذات النظرة الشاملة .

وفى هذا المعنى يقول " ادوارد مارو " مدير وكالة الإعلام الأمريكية :

« إن بلادنا هى بلاد الأيديولوجيات المتعددة فالديمقراطية ليست بسيطة بل معقدة ونحن نسمح بل نشجع الاختلاف . فالتنوع هو شعارنا . وقد جعلناها عقيدة وطنية ألا تكون لنا عقيدة » .

---

(١) *Bell, Daniel :* "The End Of Ideology". Glencoe, Illinois, 1960 - P. 370.

(٢) *Steel, Ronald :* "Pax Americana". New York, 1967 - P. 27.

ولا شك أن هذه المحاولات كلها تستهدف أن تجعل من عجز الأيديولوجية الرأسمالية الحديثة فضيلة : هى بلا شك فضيلة خداع الجماهير .

ويناقش " فرانك جونسون " أسباب هذا الضعف فيقول :

« يقال إنه ليست لنا أيديولوجية أمريكية وهذا الاتهام حقيق فعلا فنحن لا نملك أيديولوجية لأننا فقدنا الثقة بصورة كبيرة فى المبادئ التى جعلت منا فى الماضى أمة عظيمة . لقد زرعنا فى أنفسنا كشعب عقدة نقص فردية وجماعية . إننا نخجل من أنفسنا [1] » .

وبعد ، فإذا كانت الأيديولوجية منهجاً للتفكير يعبر عن نظرة معينة للعالم وفهماً معيناً لواجبات المجتمع وأهدافه فإن للرأسمالية الحديثة أيديولوجيتها أيضاً لا شك فى ذلك . حتى إذا لم تتخذ شكل فكرة محددة واحدة مقبولة من الجميع . ولكن كثيراً من المفكرين يعلمون أن الرأسمالية لا تستطيع أن تعبر اليوم بصراحة عن الرمز الحقيقى لمعتقداتها ، ومن هنا كان التعدد الأيديولوجى بمعنى محاولة إعطاء تفسير مقبول من وجهة نظر الدعاية لكل مشكلة فردية على انفراد منعزلة عن الصورة العامة لتطور المجتمع والأحداث السياسية .

وهذا — كما قدمنا — إنما يعكس ضعفاً أساسيا فى الأيديولوجية الرأسمالية المعاصرة وبصفة خاصة فى مواجهتها لمدارس الفكر الاشتراكى المختلفة ، وهى حقيقة يدركها تماماً المفكرون فى الغرب .

وفى هذا يقول " سول بادوفر " خبير الحرب النفسية فى الحرب العالمية الثانية : « أن كثيراً من نواحى التخلف فى سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ترجع إلى إن سياستها بصفة عامة سلبية فهى : « ضد الشيوعية » ، « ضد السوفيتية » . « ضد الدكتاتورية » ، « ضد الناصرية » . ولكنها لم تقل « مع ماذا ؟ » . وسيظل هذا السؤال بلا إجابة طالما لم تعطى الولايات المتحدة العالم أيديولوجية ملهمة أو برنامج عملى إجتماعى ايجابى وهو ما تقتضيه

---

(١) *Jonshon, Frank ;* "No Substitute For Victory". Chicago. 1962 - P. 221.

الأيديولوجية . وكقاعدة لا تستطيع أن تطرق شيئاً بلا شيء وعلى ذلك فإن حربنا الأيديولوجية مثلها مثـل سياستنا الخارجية تعانى من الفراغ الفكرى الروحى ولا بد أن يستمر الأمر على ذلك حتى يأتى الوقت الذى تستطيع فيه الولايات المتحدة أن تضع مثلا أعلى يلتف حوله الناس متمثلا فى برنامج عمل إيجابى[١] .

أما " بارات أوهارا " رجل الكونجرس فإنه يلتمس مثل هذه الأيديولوجية فى المؤلفات الليبرالية الكلاسيكية ويقترح إعادة طبعها على نطاق واسع وتوزيعها فى البلاد الأجنبية معتقداً أن ذلك سيساعد على تعويض الضعف الأساسى للعالم الحر المتمثل فى عدم وجود نظرية سياسية عامة[٢] .

" وبارات أوهارا " يذكرنا هنا باستغلال نابليون لمؤلفات المفكرين الفرنسيين الثوريين التى مهدت للثورة الفرنسية رغم تحريمه نشرها داخل فرنسا ذاتها . وعدم إيمانه الشخصى بها .

والحق لقد كان الأستاذ " مونس " موفقاً تمام التوفيق عندما أطلق اسم « أيديولوجية للتصدير » على الأفكار والنظريات التى وضعت لاستخدامات الدعاية السياسية الخارجية الأمريكية التى تحاول أن تعطى واجهة أيديولوجية لسياستها .

وفى هذا يقول :

« يحتاج الساسة الأمريكيون إلى واجهة أيديولوجية على الأقل لسياستهم الخارجية لكى تصبح أكثر احتراماً وأكثر مبيعاً[٣] .

---

(١) *Whitaker, Jr. & Urban J. :* (edited by) : "Propaganda And International Relations". San Francisco 1962 - P. 143.

(٢) *The Congress Records, Vol.* 106 Aug. 1960 - P. 18873.

(٣) *Spiro, Herbert :* "World Politics, The Global System", Homewood, Illinois, 1966 - P. 299.

والحقيقة أن الفجوة بين الرمز الاستعمارى الحقيقى لطبقة الحاكمة الرأسمالية والقناع الأيديولوجى الذى يظهر لرجل الشارع كعقيدة رسمية قد اتسعت بصورة كبيرة فى عصرنا هذا .

فمصالح الاحتكارات تتطلب زيادة الاستغلال والقمع السياسى وقص أجنحة الديمقراطية وسحق كل مقاومة لخططهم السياسية الرجعية العدوانية ؛ وهو ما ينعكس فى أفكار محددة للطبقة الحاكمة مثل وجهة نظرها بالنسبة للطبيعة البشرية وكافة الأفكار السياسية الإمبريالية التى تتجه إلى تبرير حقها فى الحكم وتوسيع نطاق تدخل الحكومة التى تسيطر عليها الاحتكارات فى كافة مجالات الحياة وتمكينها من خداع الجماهير وخداع الرأى العام بالمعلومات المضللة .

غير أن هناك مصاعب جمة تقف اليوم فى طريقها نتيجة لانتشار الأفكار الاشتراكية بشكل أو بآخر بين الجماهير الشعبية فى جميع أنحاء العالم . فلقد أصبحت هناك أيديولوجية مرجودة فعلا لدى هذه الجماهير أكثر عمقاً وأكثر فهماً وتختلف اختلافاً بيناً عن الأيديولوجية الرأسمالية . وهذا لا يعنى أن الطبقات الشعبية فى المجتمعات الرأسمالية ، قد تحولت بأية حال من الأحوال إلى الماركسية اللينينية ولكنها تعنى أن هناك نهجاً معيناً للأفكار والمثل العليا يتصل بالفلسفة الاشتراكية قد أخذت تمتد جذوره وأخذ يكسب الكتل الشعبية ويساعدها على رؤية مصالحها الحقيقية بصورة أكثر وضوحاً . ولعل مدرستنا الاشتراكية العربية مثالا حيا على ذلك ، وتحت تأثير هذه المثل العليا بدأت الجماهير تشعر أن من غير الطبيعى أن تظل القوة السياسية فى أيدى قلة من الاحتكارات وبدأت تفهم حقيقة السياسة الخارجية الإمبريالية وخاصة فيما يتعلق بقضية الحرب والسلام واستغلال الشعوب المستعبدة .

وهذا مايمكن ملاحظته بوضوح عندما نحلل الأيديولوجية الاستعمارية فى المناطق التى تتصادم فيها أفكارها مباشرة مع الأفكار الإشتراكية — أيًّا كانت منابعها — أعنى مجال الدعاية السياسية الخارجية حيث تحاول الإمبريالية بيع أيديولوجيتها لشعوب العالم الثالث بصفة خاصة متسترة تحت شعارات العالم الحر .

والديمقراطية اللبرالية ، والحرية ، وحقوق الإنسان ، ونحو ذلك من شعارات الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية التى تعلم هذه الشعوب حق العلم من واقع تجاربها وخبراتها مدى تنكر الإمبرالية لها فى مجال التطبيق الواقعى فى عصرنا هذا الذى نعيشه . . .

خلاصة القول إن المعركة الأيديولوجية التى تدور رحاها فى عالمنا اليوم إنما تدور حول أى من الفلسفتين الاجتماعيتين يمثل حقا هـذه المثل : « السلام » ، « العدالة الاجتماعية » ، « الحرية » ، « الديمقراطية » ...

الدعاية والرأى العام الأمريكى :

يصف بعض الكتاب شعب الولايات المتحدة بأنه الشعب الذى يعتقد أنه أكثر شعوب العالم تمتعاً بالحرية وغيرة عليها ، فى حين أن أجهزة الدعاية العالية التخصص تقود الرأى العام فى بلاده بأسلوب لا يختلف كثيراً عن الأساليب الدكتاتورية .

حقا إن الرأى العام فى الولايات المتحدة هو من الناحية النظرية القانون ، وهو أساس أنظمة الحكم وهو الذى يعين وظائف الدولة الرسمية والمهيمن على ما تتخذه من قرارات ، ولكن الواقع أن الدعاية العالية التخطيط العلمية التنظيم الشديدة الدهاء هى التى تسوق الشعب الأمريكى كالقطيع دون أن يدرك مدى وقوعه فى حبائلها . فرغم أن الحرية الشخصية غالبة فى أمريكا إلا أن استقلال الرأى هناك ضئيل واختلاف وجهات النظر محدودة ؛ فكما تنتج الولايات المتحدة الأمريكية السيارة بالجملة ، يفكر أبناؤها بالجملة . وهذا هو السبب فى ضعف استقلال الرأى العام هناك[1] .

والواقع أن الدعاية فى المجتمع الأمريكى انعكاس للمجتمع نفسه . فهو مجتمع تجارى ، ويترتب على سيادة الروح التجارية والرأسمالية قوة التأثير الشخصى والتأثر بالآخرين إلى الحد الذى يكاد يمحو عنصر الفردية .

---

(١) مصطفى الحفناوى « الدعاية السياسية والاستعلام » ص ٢٥٨ .

وتبدو أهمية ذلك إذا ما عرفنا أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة ما هى إلا امتداد للسياسة الداخلية وأن الطبقة التى تصنع القرار السياسى الداخلى هى نفسها التى تصنع القرار السياسى الخارجى فالعمليتان محكومتان بقانون واحد هو مصلحة الطبقة الرأسمالية الاحتكارية المهيمنة على أجهزة الدولة وكافة أجهزة الإعلام من إذاعة وصحافة وتليفزيون وسينما ... إلخ .

الدعاية الخارجية الأمريكية – أساليبها وأهدافها :

وتعتبر وكالة الاستعلامات الأمريكية الجهاز الدعائى الرسمى لحكومة الأمريكية ، وتستخدم هذه الوكالة ١٢,٠٠٠ موظفاً وتصل ميزانيتها السنوية إلى ١٧٠ مليون دولار . ويشمل نشاط الوكالة إنتاج الوثائق والبرامج التليفزيونية للعالم الخارجى وإصدار المجلات والرسوم الهزلية والكتب فى خمسين لغة ، وإذاعة ٨٥٠ ساعة أسبوعيا من الاذاعات الموجهة عن طريق صوت أمريكا وإدارة المكتبات والمعارض ومراكز الإستعلامات وغير ذلك من ألوان النشاط الذى يستهدف ترويج الولايات المتحدة وأسلوب الحياة الأمريكى وخاصة مبادئ الليبرالية بمفهومها الأمريكى – فى العالم الخارجى .

وتعتبر إذاعة صوت أمريكا أكبر أقسام وكالة الاستعلامات الأمريكية . ويغطى إرسالها جميع أنحاء العالم وذلك عن طريق محطات التقوية والإرسال الموجودة فى أماكن عديدة من العالم .

وتملك المحطة مجموعة ضخمة من الأشرطة المسجلة توزعها على محطات الإذاعة فى العالم . وتشتمل هذه الأشرطة على أحاديث وتمثيليات وسير وقراءة وأوبرات وتسجيلات موسيقية ومناقشات علمية .

على أن الجانب الأكبر من ميزانية صوت أمريكا ينفق على إعداد الأخبار . ومما هو جدير بالذكر أن الأخبار والتعليقات بالإنجليزية واللغات الأجنبية تعد فى ضوء تعليمات واشنطن المحددة . وتمد الوكالة مراكزها فى ١٠٦ قطراً بالمواد الإعلامية الأخرى كالمجلات والكتب والكتيبات والقصص الإخبارية ونصوص الخطب الهامة للصحف الأجنبية

ويرأس كل مركز من هذه المراكز ضابط للخدمة العامة ويعاونه عدد من المساعدين الأمريكيين (الضابط الإعلامى والضابط الثقافى) وهيئة من المترجمين والكتاب المحليين ومن السكرتيريين وسائر الموظفين .

ويعمل ضباط الخدمة العامة على التغلغل فى الأوساط الثقافية والجماهيرية فى الدول المبعوثين إليها . ويسهل عليهم ذلك معرفة لغة وعادات وتقاليد البلد الموفدين إليها . والهدف المعلن من وراء ذلك هو محاولة إيجاد الطريقة المناسبة لترويج السياسة والمثل الأمريكية فى المجتمعات الأجنبية . خلاصة القول أن عملهم يقتضى منهم استطلاع الرأى العام فى الدول الأجنبية ودراسة ردود فعله المختلفة لسياسات أمريكا ومحاولة الوصول إلى أفضل الطرق البراجماتية لاستيعابه والسيطرة عليه .

والوكالة تعمل بالتنسيق الكامل مع سائر الأجهزة الدبلوماسية والدعائية والثقافية الأمريكية كمفرق السلام والجامعات لتحقيق أهداف محدودة ومرسومة .

وهو الأمر الذى يأخذه عليها السناتور " وليم فولبريت[1] " الذى يرى أن يكون عملها الأساسى دعم التعاون الثقافى والفنى والعلمى الخارجى ، كما يفعل الاتحاد السوفييتى وإنجلترا وفرنسا ، وليس استخدام الثقافة والفن لتحقيق أهداف سياسية محددة كثيراً ما تقتضى التورط فى ألوان من التجسس والحرب النفسية والتخريب الثقافى ، مما دفع بعض الكتاب إلى تسمية هذا اللون من النشاط باسم : « الغزو الثقافى الأمريكى » .

ويصف هؤلاء الكتاب أهداف الغزو الثقافى الأمريكى بأنه توفير جو من الحماية للرأسمال الأمريكى فى تشعبه وانتشاره عن طريق الأجهزة الإعلامية والثقافية التى يجرى التخطيط لها على النحو التالى[2] :

---

(١) *Bernel, Albert :* "The Split Personality Of U.S.I.A.". Harper's Magazine Vol. 231 - Sept. 1965 - P. 116-124.

(٢) سامى منصور : « أقنعة الاستعمار الأمريكى » الفصل السادس – دار الكاتب العربى .

١ ــ أجهزة الدعاية المعلنة :

وتعمل عادة على التمجيد فى محاسن النظام الرأسمالى وعلى وجه خاص الأمريكى باعتباره من أفضل النظم لتحقيق الرفاهية وتوفير الحرية . صحيح أن هذه الأجهزة لا تهاجم النظم الاشتراكية مثلا ، وهى تفعل ذلك ليس لأخلاقيات عمل لها ولكن لأنها لو فعلت لكانت ضمن أجهزة الدعاية المضادة لهذه الدول وبالتالى تعرضت لطائلة القانون . فهى تعمل على أساس أنها إذا لم تستطع تشويه الفكر والتطبيق الاشتراكى فعلى الأقل فى قدرتها التمجيد فى النظام الرأسمالى وتكون بذلك قد أدت نفس الغرض بل وبطريقة أفضل يقال عنها « دعاية غير مباشرة » .

٢ ــ أجهزة الدعاية غير المعلنة :

مثل دور النشر التى لم يعرف عنها صلتها بأجهزة الحكومة الأمريكية ، وتعمل على تحريف الوقائع بل حتى التاريخ ــ تحرفه بالقدر الذى يتفق مع مصالحها مثلما حدث أخيراً فى الكتاب الذى نشرته مؤسسة « بريجر » الأمريكية عن الدومنيكان وظهر أنه من إعداد وتمويل المخابرات الأمريكية .

حتى السينما الأمريكية حينما تقدم أفلام الحرب تغير من أحداث التاريخ وتتابعها حسب ما تراه أجهزة الأمن والدعاية الأمريكية . . وقد أصبح هذا التحريف من كثرته أمراً مألوفاً لدى الجماهير . وهذه الألفة على المغالطة هى أكبر ما كسبته الأجهزة الأمريكية . فالأجهزة غير المعروف صلتها بالحكومة الأمريكية تعتمد على الكذب والتحريف . وهى لا تضع هذا الكذب أو تقوم بهذا التحريف بطريقة مكشوفة بل إنها تعمل فى إطار عام من الأكاديمية والموضوعية .

وشعار مثل هذه الأجهزة أنه إذا لم يكن من الممكن خداع كل الجماهير فعلى الأقل يمكن خداع بعضها . ومع الوقت تتسع قاعدة المخدوعين حتى تمثل أرضاً خصبة للعمل العلنى .

٣ – استخدام سلاح الجنس :

فمن خلال أفلام الجنس يتحول الإجرام إلى بطولة والقتل إلى عمل يثير الإعجاب ويفتن النساء . وبرغم مافى ذلك من بث لموجات الانحلال وخصوصاً بين الشباب والمراهقين إلا أن الأخطر منها أن الجنس غالباً ما يغطى قصص الجاسوسية . حتى لقد أصبح عملاء الجاسوسية أبطالا لهم شعبيتهم فى كثير من دول العالم ، حتى إن كل الشباب يحلم بأن يجد نفسه فى مكان البطل لما يتوافر له من وسائل الرفاهية والخمر والنساء .

ومرة أخرى فإن الجماهير إذا ما ألفت الجاسوسية كأمر بطولى يصبح من السهل من خلال هذه الأرضية الفكرية العثور على واحد أو أكثر فى كل موقع ليقوم بنفس الدور لحساب المخابرات الأمريكية (يحضرنا هنا قصة الأسرة التى جندتها المخابرات الإسرائيلية بأكملها : الأب الفلسطينى الأصل والأم والأبناء الثلاثة) . وإذا لم يصل الأمر إلى تقديم عملاء فيكفى أن أخطر الجرائم السياسية وهى الجاسوسية تصبح مع الوقت عملا بطوليا تقبله الجماهير ، أو على الأقل تنظر إليه بإعجاب بدلا من أن تثير غضبها ويحركها للانتقام . وتصبح عملية التجسس فى حياة الأفراد اليومية شيئاً روتينيا لا يثير حتى الاشمئزاز .

وليست مهمة هذه المؤسسات نشر الفكر الأمريكى فقط ولكنها تتجاوز ذلك إلى[1] :

(ا) جمع المعلومات من المواقع التى تعمل فيها وإرسالها إلى الولايات المتحدة للاستفادة منها فى أى عملية مجابهة . ومثال ذلك ما قام به مركز فورد فى القاهرة من قياس اتجاهات الرأى العام المصرى وعلى وجه خاص الشباب من قضايا القومية وفلسطين والاشتراكية .

(ب) جمع أكبر عدد من المستفيدين من هذه الأجهزة فهى بحكم

---

(١) سامى منصور : المرجع السابق ذكره .

إمكانياتها تدفع الكثير ، والمعروف مثلا أن مؤسسة فرنكلين للنشر كانت تدفع فى مصر أضعاف ماقى قدرة أى ناشر آخر أن يدفعه مما جعل الكثيرين يتسابقون على التعامل معها أو على الأقل لإيجاد صلة بها . وليست المسألة مقصورة على أجهزة النشر بل إن مراكز برامج المساعدات توزع الهدايا مثلما فعلت إحدى هذه البرامج بتوزيع السيارات الفاخرة على بعض مديرى التعليم .

(ح) استغلال وجود هذه المراكز والمؤسسات لبعثرة الإشاعات والنكت السياسية ، وقد قيل إن نكتة واحدة قيلت بصياغات كثيرة مختلفة فى كثير من الدول قد ساعدت على وقوع عدد من الانقلابات فى أمريكا اللاتينية .

وقليل من يعرف أن فى إدارة المخابرات المركزية الأمريكية إدارة خاصة للنكتة السياسية . ومهمتها تلفيق النكتة ثم إرسالها من خلال العملاء وغيرهم إلى مواقع التجمعات البشرية .

وتكون محصلة ذلك كله خلق ما ألف الناس عندنا تسميتهم « بالمتأمريكين » فكراً وسلوكاً . وهم عنصر خطر على أى مجتمع وخصوصاً إذا كان المجتمع يترك الطريق أمامهم مفتوحاً للوصول إلى مراكز قيادية .

هذه الحقائق تؤكد أن النشاط الثقافى الأمريكى الواسع المدى لا يمكن بأية حال من الأحوال النظر إليه على أنه مجرد نشاط ثقافى خالص لوجه الله ، بل—وهنا تقبع خطورته — هو جزء من استراتيجية سياسية إعلامية عدوانية متكاملة ترمى إلى تدمير مقومات المجتمعات الأخرى أو احتوائها بإعطائها جرعات تدريجية من فكر مضاد يسمح فى المرتبة الأولى بحماية النشاط الاستعمارى الأمريكى بكل أقنعته . وهو ما يستلزم منا — نحن دول وشعوب العالم الثالث الحديثة الاستقلال والتى شقت عصا الطاعة على النظام الرأسمالى الإمبريالى مزيداً من اليقظة والتدقيق فيما يقدم لشعوبنا من غذاء روحى يومى ....

والواقع أنه إذا كانت للدعاية الخارجية الأمريكية سمات معينة ، فإن هذه السمات إنما تفرضها عليها طبيعة السياسة الخارجية للولايات المتحدة التى

تسهم المؤسسات الاحتكارية فى صياغتها ورسمها ، وليس بخاف دور رجال الأعمال والعسكريين وسائر أصحاب المصالح الاحتكارية والعدوانية فى انتخابات الكونجرس والرياسة .

خلاصة القول — كما يرى الكثير من المفكرين — أن الدعاية سواء على النطاق الداخلى أو الخارجى قد أصبحت اليوم جزءاً من العملية السياسية للدولة الحديثة ، ويشترك فى التخطيط والإعداد لها رجل الدعاية ورجل السياسة معاً ...

obeikandl.com